مصر فى عين ابن بطوطة

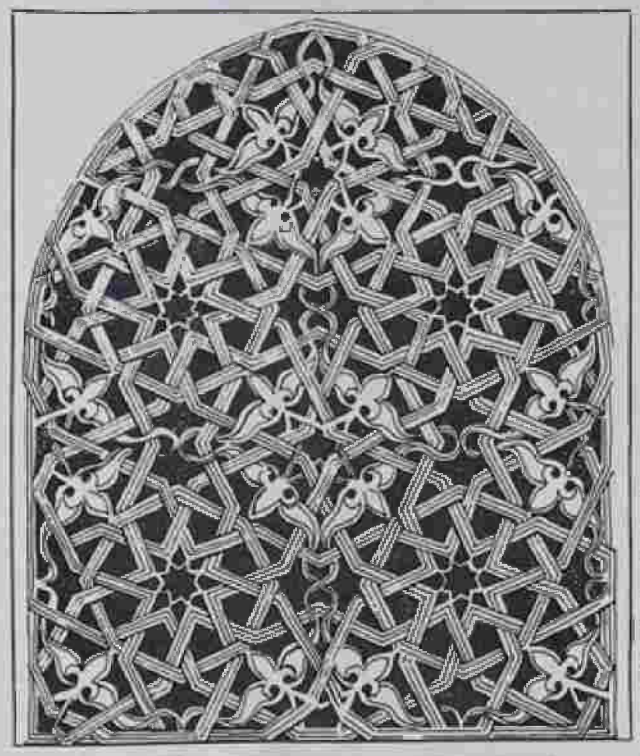

عبد العال الحمامصى

بتصوير

يوما ما خلال القرن الثامن الهجرى – وبالتحديد يوم الخميس الثانى من شهر رجب عام ٧٢٥ الخامس من يوليو سنة ١٣٢٦ – انطلق من طنجة بالمغرب شاب فى الثانية والعشرين من عمره . . . تملكت منه هواية غريبة ، هى أن يحمل عصاه على كاهله ويرتحل فى بلاد الله جوّابا للبلدان . . من قطر إلى قطر ومن بحر إلى نهر ومن صحراء إلى حاضرة . تسوقه هواية تواقة إلى اكتشاف المجهول . .

فلم يكن الرجل موفدا فى مهمة ولا سفيرا للدولة ولا رسولا لأمير . . وما كان ينتظر وفدا من ملك أو أخاعة من سلطان . . ولا كان مغامرا يسعى وراء كنز من كنوز الغابرين . . إنما هو التوق اللامح إلى معرفة الناس واكتشاف سر كل الأشياء . . ليعطينا فى النهاية موسوعة ضافية متكاملة عن بلاد الاسلام بكل مأخوذه . . موسوعة قدمها بمفرده بعد رحلة استغرقت ربع قرن من الزمان . . طاف فيها شرقا وغربا ، وحفلت بالخاطر والأهوال . .

هذا الرجل الذى أنجز بمفرده تلك المهمة الجليلة – التى تحتاج الآن لو اردنا أن نقوم بمثلها إلى ملايين من الأموال وعدة مؤسسات ومعاهد ومجاميع وتخصصات – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى ، المعروف عالميا بابن بطوطة .

إن رحلة ابن بطوطة هى أشهر وأهم رحلة فى قلب العالم الإسلامى الممتد من جزيرة العرب حتى أقوار الصين . صحيح أن ابن جبير الأندلسى قد سبق ابن بطوطة بنحو قرن من الزمان عندما قام برحلة إلى المشرق العربى والحجاز . . إلا أنها رحلة محدودة الزمان والمكان . . أما رحلة ابن بطوطة فهى الأولى من نوعها التى غطت كل ديار الإسلام جغرافيا وتاريخيا وبشرا وحيوانا وزرعا . . ولاتعادلها فى الأهمية رحلة ماركوبولو الذى كان صاحبا معاصرا له بعض الوقت . فقد عاش ماركوبولو بين سنتى ١٢٥٤ و١٣٢٤ ، وعاش ابن بطوطة مابين سنتى ١٣٠٤ و١٣٧٨ . وقد أقدم على رحلته بعد موت ماركوبولو بعام ونصف عام تقريبا . .

ولكن رحلة ماركو لقيت الاهتمام المتواصل . ولعل أساس كتابه عن الرحلة رسمت أوربا سياسة تعاملها مع آسيا والصين . . ولكننا كالعادة – لم نحاول أن نستفيد شيئا من كتاب ابن بطوطة . .

وليس أدل على كما يؤكد الدكتور حسين مؤنس طبعة واحدة محققة تحقيقا وافيا لرحلاته . . ولقد صوب الدكتور وهو يقوم بالدراسة التى سأحدثك عنها بعد . عشرات الأخطاء فى الطبعة الوحيدة التى صدرت عام ١٩٦٨ . . ومع ذلك فهذه الطبعة هى أحسن مالدينا . . ومن العجب – هكذا يقول الدكتور مؤنس – أن ناشرها لم تسمح نفسه بأن يطلب إلى واحد من أهل العلم ان يكتب لها مقدمة حرصا على المال . . كتبت رحلة ماركوبولو الاهتمام البالغ من لدن الأفراد والجامعات والدول . أما رحلة ابن بطوطة التى تفوقها أهمية فقد لقيت عندنا الإهمال الفادح وعيشت هنا . . رغم أن الدكتور حسين مؤنس عندما يقارن بينها لايجد ضميره العلمى غضاضة فى أن يقول : ولكن شتان مابين الاثنين فى الدقة وتتبع الذهن ويقظة القلب ودقة الكلام ورصده . . وماأكثر ماكذب ماركو بولو ! وماأقل ما بالغ ابن بطوطة ! فانظر – هداك الله بعد ذلك كله إلى مقام الرجلين فى التاريخ العلمى للحضارة العالمية

تعال معى – ياعزيزى القارئ – نتابع رحلة فذة نرى من خلالها عالم الإسلام والعصر بأسره يتيح لنا هذه المتعة ، تحفة كتاب رائع أصدرته دار المعارف مؤخرا

من تأليف الدكتور حسين مؤنس بعنوان « ابن بطوطة ورحلاته – تحقيق ودراسة وتحليل » ولقد بذل الدكتور حسين مؤنس جهدا علميا بالغا فى تحقيق الرحلات التى قام بها ابن بطوطة . ووضعها فى إطارها الجغرافى والتاريخى من بدايتها إلى نهايتها . ثم دراستها جملة واحدة لتأتينا فى النهاية – مع إضافة الدكتور – بمثابة تقرير شامل عن أحوال الأمة الإسلامية عربا وعجما خلال القرن الثامن الهجرى .

ولاأستطيع خلال حولنا فى هذا الكتاب سوى الا أن أقدم لك مجرد لمحات لاتغنيك عن قراءة الكتاب والعودة إلى ابن بطوطة الرحالة والمصدر . .

خرج ابن بطوطة من طنجة حاملا الوظائف ليس عليه إلا مايرتديه وبضعة دنانير فى جيبه ، ليقوم برحلة ممتدة الطول شاسعة العرض استغرقت ربع قرن من الزمان . ومع ذلك فلم يشك يوما حاجة ولا اغترب عن ضالة . فكيف استطاع أن ينجز المهمة الخطيرة ؟ . . يقول لنا الدكتور حسين مؤنس إن الأمة الإسلامية هى التى مولت رحلته الفريدة وقامت بالإنفاق عليها . . فعلى طول الرحلة وامتدادها كانت هناك الزوايا والمدارس ودور الضيافة التى يقيمها أهل الخير وأصحاب الحرف ورجال الطرق الصوفية . لقد كانت الأمة الإسلامية وقتها مترابطة متماسكة لا أحد يشعر بالغربة فى أية دار من ديارها . .

يستخلص لنا الدكتور من هذه الحقيقة صورة بالغة الدلالة لوضع الأمة الإسلامية فى هذا العصر . كان هناك عالمان . . عالم السياسة القبيح بحروبه ومكائده وجوره . . وهذا العالم من شأنه أن يجعل مهمة مثل رحلة ابن بطوطة عملية بالغة الصعوبة . . فالسفر فى تلك الأيام لم يكن متعة ولا راحة ولا نزهة . . إنما مغامرة بكل مانعنيه الكلمة . . مغامرة بالنفس ذاتها . . وكانت الحكومات فى هذا العصر شديدة الوطأة على المسافرين . . ضرائب باهظة . . ومغارم شديدة . . مكاتب الرشوة عند الدخول والخروج أو حتى اجتياز معابر الأنهار . ومع ذلك فلا أمان للأمن والسلامة إنما يترك المسافر لقدره . .

وماأكثر مالاقاه الرجل من مخاطر وأهوال . . ولتأمل أهون الأوضاع عندما اجتاز ابن بطوطة نقطة الحدود بين مصر والشام – وكانت مصر والشام أيامها سلطنة واحدة – عند « قطيا » يقول : وقيا توجد الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث . ثم يردف بعد أن يصف أحوال النقطة ولايجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر ، أو أحد من مصر إلا ببراءة من الشام » والبراءة – كما يفسرها الدكتور مؤنس – عبارة عن وثيقة مرور تدل على أنه دفع الضرائب . والمكوس المفروضة على الانتقال بين مصر والشام كانت مبالغ كبيرة . .

ومع ذلك كانت تسمى زكاة !

بجانب عالم السياسة القبيح وتظلم الحكم المطلق والتصارع كان هناك الوجه المشرق لعالم الأمة الإسلامية المتآخية التى وحدها الإسلام رغم تعدد الأجناس . . فبهذا ابن بطوطة يقطع هذا العالم بأسره ابتداء من المغرب حتى أقوار بكين . ولايجد إلا الكرم والضيافة والحفاوة ومشاعر الإخاء الوطيد . . ذلك أنه كان هناك تنظم بالغ الاحكام وضعته الأمة الإسلامية

شعوبا دون الدول . . هو نظام الزوايا والمدارس والربط التى كانت دور خيافة ورعاية اجتماعية لابن السبيل الذى فرض له القرآن حقا معلوما فى أموال المسلمين !

صورة أخرى بالغة الدلالة يستخلصها لنا الدكتور حسين مؤنس من رحلة ابن بطوطة ثم يكتفيها بالتحليل العلمى . . ونعطيها هذه الصورة طابع العصر وملامحه . . فعلى طول الرحلة نجده يسعى بتوق ووجد صوب لاهب إلى لقاء أولياء الله والعارفين وشيوخ الصوفية والزهاد وأصحاب الكرامات . .

وكان أحيانا يتخلف عن ركب القافلة المسافر معها حتى لانفوته زيارة عابد أو زاهد . . فى كل بلد كان يلم به كان يسعى إلى هؤلاء . . ففى الإسكندرية يسعى إلى الشيخ أبو عبد الله القاسى الذى يصفه بأنه من كبار أولياء الله ، ويذكر عنه أنه كان يسمع رد السلام عليه عندما يسلم من صلاته . . أما الشيخ خليفة الإمام البورع الزاهد صاحب المكاشفات . . فيذكر ابن بطوطة أنه دخل عليه مرة فاعتذره الشيخ بقوله « أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد » . وأجابه ابن بطوطة بذلك « ولم يكن حينئذ خاطرى التوغل فى البلاد الخاصية من الهند والصين » فقال له الشيخ : « لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند وأخى ركن الدين زكريا بالسند وأخى برهان الدين بالصين » فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام » يقول ابن بطوطة « فحجبت من قوله . وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد . ولم أزل أتوجه حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم .

وفى حينا بين مرشد فى الطريق الى دمشور يسعى إلى الشيخ الزاهد المعتزل عبد الله المرشدى الذى يصفه بأنه « الشاق من الكون » الذى يرزقه الله من عنده رأسا . وما أكثر ما نجده من تعبير « يصرف من تحت السجادة » وصفا لبعض أقطاب الأولياء . . ومن طريف مايورده ابن بطوطة عن هذا الزاهد الشاق من الكون الذى كان « يقصده الوزراء والكبراء وعامة الناس فيشتهى كل منهم مايريد من أطعام فيأتيه به مهما كانوا . . بالطبع كان هذا كله من الكون » ثم يذكر ابن بطوطة أنه عندما بات فى زاوية الشيخ رأى فى الليل حلما . فأكدت له كرامة الشيخ عندما كاشفه بقاصيله وفسره له قبل أن يخبره به . . ثم لوحظ بقيه بهذه الكرامة عندما كان بالهند وهو فى طريقه إلى الصين موفدا من قبل السلطان محمد تغلق بهدية إلى ملك الصين . وكان السلطان « تغلق » يعتبر بهذه الهدية ملك الصين عن عدم إمكانه السماح ببناء معبد بوذى فى أرض إسلامية . وكان ملك الصين قد استأذنه فى أن يعيد بناء معبد بوذى كان يحج إليه أهل الصين فى موضع يسمى « مهل » .

ويعرض ابن بطوطة فى الطريق لغارات اللصوص . سلبوا مامعه واختطفوه ثم هرب ليقع فى أسر لصوص آخرين . وعندما أطلقوا سراحه . كاد يهلك من الجوع والعطش إلى أن رزقه الله رجلا صالحا أسود اللون حمله على كاهله ورعاه . كان هذا الصوفى هو « دلشاد » الذى قال فى شأنه ولى الله عبد الله المرشدى قبل نحو عشرين سنة « ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخى دلشاد وتخلصت من شدة تلج فيها » ماسعى هذا الاهتمام من جانب ابن بطوطة بالأولياء والزهاد جنبا إلى جنب مع جغرافية كل بلد يزوره وأوضاعه السياسية والاجتماعية وعاداته فى المأكل والملبس والعمارة ؟ . . يستخلص لنا الدكتور حسين مؤنس دلالة الظاهرة . فهذا العصر كان عصر الأولياء وأصحاب الكرامات ومشايخ الطرق الصوفية بلا منازع . فى كل مدينة نجد عددا من الأولياء يحتلون مراكز مرموقة وتقوم سلطان معترف به من قبل الناس بل من قبل السلطة الزمنية . . بل كان الناس يرون أن هؤلاء هم السلاطين قبل أصحاب السلطان . ومازلنا فى مصر نجد مساجد هؤلاء الأولياء مثل مسجد السلطان الحنفى ومسجد السلطان أبى العلا . . ومازلنا نطلق على السيدة زينب رضى الله عنها لقب « رئيسة الديوان » .

إن الظاهرة – كما تخرج من تحليلات الدكتور مؤنس – كانت نتاجا طبيعيا للوضع القائم فى العالم الإسلامى منذ القرنين السادس والسابع الهجريين . . فقد تدهورت أوضاع الحكم . وألمت بالأمة جائحة الصليبيات . وتحول العدوان الصليبى فى الاندلس وبلاد الشام من غارات وغزوات إلى احتلال . . سقطت الأندلس وانتهت دولة الإسلام ، وقامت فى الشام كيانات نصرانية على أرض اسلامية . . ووقف السلاجقة أمام المجنة موقف العاجز ، وهان شأن الخلافة العباسية حتى لم يعد لها أى وزن . وهنا كان لابد أن تتحسس الأمة – التى يجرى الدين فى عروقها مجرى الدماء – الخلاص عن طريق أولياء الله . . تشد إليهم كشف الغمة . وهذا عت ظاهرة التصوف . وتزايدت مكانة أولياء الله . ومازال المثل يقول « إذا عجز الطبيب جاء الولى » !

قلت لك منذ البداية إنى لاأستطيع هنا أن أقدم عرضا يعطى صورة شاملة عن هذه الرحلة . . ولاعن الجهد الذى بذله الدكتور حسين مؤنس فى تحليلها التحقيق العلمى الذى يتيح لنا مدخلا ميسورا إلى عالمها بغير صعوبة . . قلت لك هذا فالذى يعنينى هنا بعض دلالة جوانبها . وتهمنى بالدرجة الأولى صورة مصر فى عين ابن بطوطة . .

ها قد وصل صاحبنا إلى الإسكندرية غداة الفاتح من جمادى الأولى عام ٧٢٦ هجرية ولقد بدا مبهورا بالإسكندرية وهو يتحدث عن عظمتها وحضارتها وكونها عاصمة التجارة بين آسيا وأوربا . ثم يصف سورها العظيم وأبوابها الأربعة التى نعرفها : باب صدرة وباب رشيد وباب البحر وباب الأخضر . كما يصف عمود السوارى . . ولعل ابن بطوطة كان هو أول مصدر – كما يقول الدكتور مؤنس – يعطينا فكرة وان كانت تقريبية . عن بداية تهدم منارة الإسكندرية التى هى إحدى عجائب الدنيا السبع . فابن بطوطة يذكر أنه رأى المنارة وقد تهدم أحد جوانبها . ولكنه عندما عاد إلى الإسكندرية بعد ذلك . وقد مرت ثلاث وعشرون سنة نجده يقول إنه وجد الخراب قد أتى على المنارة تماما . وكان الملك الناصر قد شرع فى بناء منار آخر . ولكن الموت لم يمهله !

ويحدثنا ابن بطوطة عن علماء الإسكندرية ورجال الصوفية فيها . ومن طريف مايذكره عن قاضى الإسكندرية أبيها عماد الدين الكندى . عمامته الضخمة التى يصفها بأنها عرفت المعتاد عن العمائم « لم أر فى مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها . رأيته يوما قاعدا فى صدر مجلسه . وقد كادت عمامته تملأ الغرفة » .

وثمة واقعة يذكرها ابن بطوطة عن مشاجرة وقعت بين بعض تجار الافرنج وأهل الإسكندرية . فتحيز والى الإسكندرية للافرنج وعاقب المشاجرين من أهل البلد . فثارت ثائرة الناس . وهنا بعث السلطان الناصر رسولا مخصوصا من القاهرة . ولكنه تحيز هو الآخر للافرنج . بل كان أشد قسوة من الوالى على أهل البلد . إذ حبس كبار أهل الإسكندرية وأغرمهم الأموال وقتل ستة وثلاثين منهم . وقطع كل رجل قطعتين وصلبهم صفين ، وكان ذلك يوم جمعة !

وعلينا أن نتوقف عند دلالة الواقعة . . فهى إذا كانت تؤكد حرص السلطة على جانب الأجانب من قديم . . فإنها تؤكد فى ذات الوقت أن بيت الشعر القائل .

« أجرام على بلابله الدر
ح حلال للطير من كل جنس » ؟

كان له امتداده فى أعمار تاريخنا . . وأنه كان نتيجة استبطان لتجارب تاريخية لامجرد تعبير عن واقع معاصر زمن قوله .

مصر . . أم البلاد .

ونعال نتوقف عند الصورة التى رسمها للقاهرة . وهو يصفها بقوله ثم وصلت إلى مدينة مصر أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد . ذات الأقاليم العريضة . والبلاد الأرضية . الشاهية فى كثرة العمارة الشاهية بالخير والنضارة . مجمع الوارد والصادر . ومحط رحل الضعيف والقادر . وبها ماشئت من عالم وجاهل . وجاد وهازل . وحليم وسفيه ووضيع ونبيه . وشريف ومشروف . . ومنكر ومعروف . وتموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وأماكنها . وشبابها نجد – يتجدد – على طول العهد . وركوكب تعديلها لايبرح عن منزل السعد . إنها القاهرة إذن دوما . . على مدى التاريخ هى القاهرة . . وأكاد أتصور وصفه لها يكاد ينطبق اليوم على حالها . وهى تضيق بسكانها وتعانى من زيادة النسل . . هل كانت القاهرة تعانى ذات الأزمة على أيام ابن بطوطة ؟ . . مهما يكن فقد كان التفاؤل يحكم نظرة ابن بطوطة . كما يحكم الآن نظرتنا إلى مستقبلها . فشبابها يتجدد دوما . . وكوكبها لايبرح عن موقع السعد !

ثم يذكر ابن بطوطة وقائع تعبر عن شغف أهل مصر بالمرح والطرب . ولكنه عندما يتعرض للجانب العلمى فيها نجده يقول « وأما المدارس فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها » . وأما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن مجاراته . وقد أعد فيه من الأرفاق والأدوية مالا يحصر ، ثم يذكر بعد ذلك أن « مجراه ألف دينار كل يوم » ! والعبارة الأخيرة تستوقف الدكتور حسين مؤنس ويجدها غير مفهومة . لأن المعروف أن المارستان . هو المستشفى لم يكن يمثل مالا . . بل كان يمثل عليه المال فكيف يكون له مجرى ؟ فلعله يريد بذلك أن النفقة عليه ألف دينار فى اليوم . .

ولكنى أقول لماذا لايكون الأمر على غير ماقرر الدكتور ؟ لقد أشار ابن بطوطة إلى الأزمة السكانية فى القاهرة . . فلماذا لايكون النهاف على المارستان انتاسا للدواء والعلاج . . قد دفع السلطة الحاكمة إلى فرض رسم معين على القادرين والأغنياء من هؤلاء ؟ !

وعندما يصف ابن بطوطة الزوايا المنتشرة فى القاهرة لطوائف الفقراء سيما الأعاجم من هؤلاء . . تبدى لنا مصر القطرية . . وحنان قبلها على الغرباء . .

ثم يتحدث ابن بطوطة عمن عرف من علماء مصر الأجلاء . ويذكر منهم جماعة يستوقف نظر الدكتور حسين مؤنس قيمهم أنهم « كانوا من جميع نواحى بلاد الاسلام قدموا : ركن الدين بن القوصع التونسى . وأثير الدين أبو حيان الغرناطى . وبرهان الدين الصفاقسى . وقوام الدين الكرمانى . وبدر الدين عبد الله المروزى . وهذه الأسماء تدل بالفعل على أن مصر كانت قد تحولت إلى مركز العلم الإسلامى الأكبر . وأن أهل العلم جميعا كانوا فيها سواء . لافرق بين مصرى وغير مصرى . وذلك هو الذى جعل لمصر وجامعها الأزهر ذلك الطابع العربى الإسلامى العام .

والآن ياصديق القارئ لاأملك إلا هذا بقدر مااستطعت . . مجرد دعوة لقراءة ابن بطوطة . ثم هذا الكتاب الهام للدكتور حسين مؤنس الذى أصدرته دار المعارف مؤخرا دعوة لكتاب قرأته متعة وثقافة . . معرفة وطرافة .